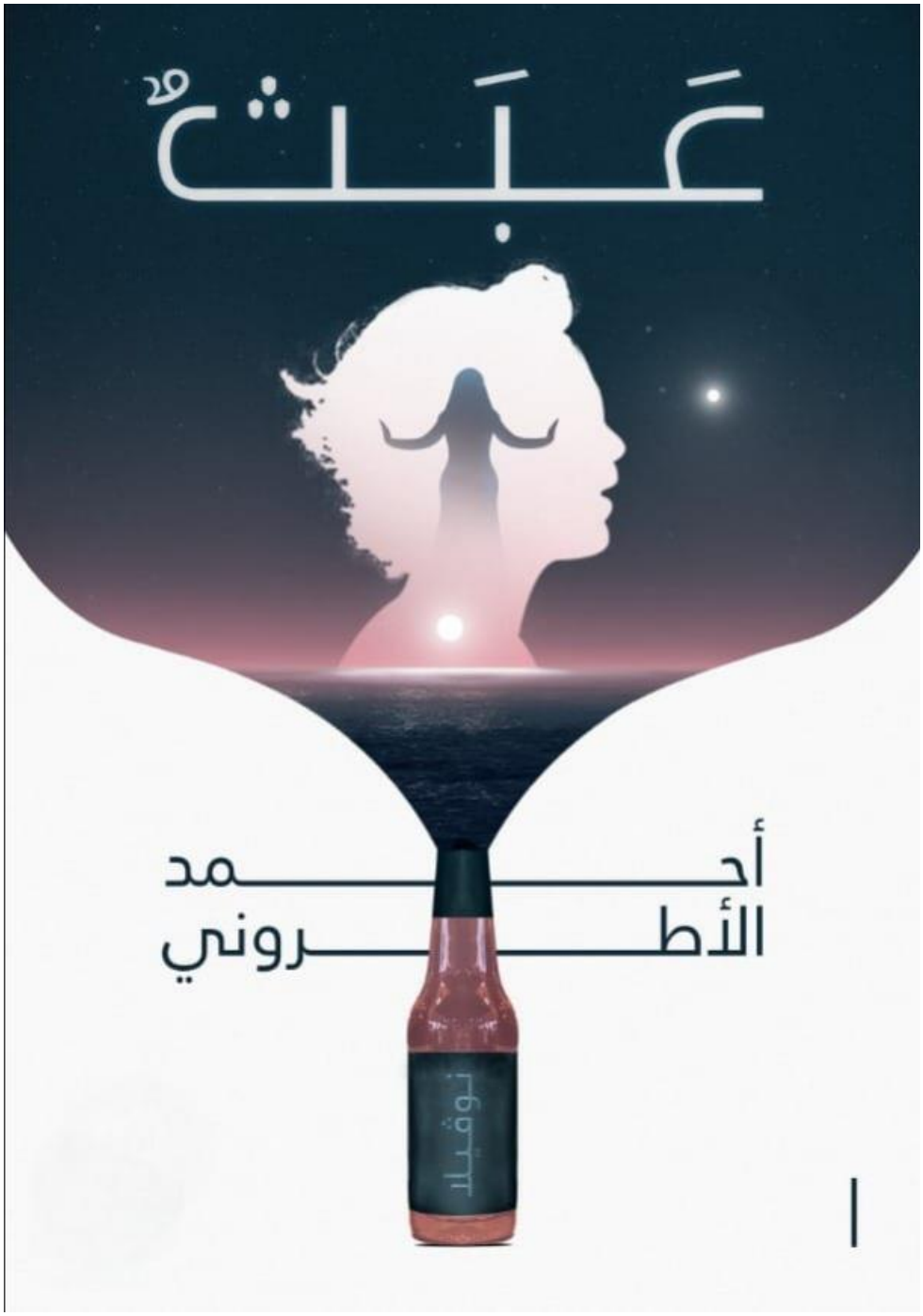
عَبَثٌ
أحمد
الأطروني

عَبَثٌ

-كيف يمكن للمرء أن ينجو بذاته من ذاته.. ؟

إهداء

إلى صديقي الذي سخرتُ من فرط تناوله للحشيش قائلًا..

"يجب أن يكون المرء مُدركًا دومًا بما حوله، يجب أن لا يغيب عقله عن الواقع ولو للحظةٍ".

أهدي إليك هذا العمل كاعتذارٍ مني عن سذاجة رأيي وسطحيته، وأقول لك..

"يجب على المرء أن لا يدرك شئ بحياته من الأساس، حتى لا يفقد صوابه ويسكن الحزن قلبه".

المقدمة

لا يوجد ما هو أصدق من قول أم كثوم حين أبدعت قائلة..

"سوف تلهو بنا الحياة وتسخر".

الخامس والعشرين من برمهات..

"سوف تلهو بنا الحياة وتسخر".

مقطوعة غنائية بسيطة تغنت بها أم كلثوم.. لكنها لم تكن مجرد مقطوعة غنائية عابرة بقدر ما كانت القشة التي قصمت ظهر البعير..

القشة التي فطرت قلبها وجعلت جسدها يرتعش من شدة الألم وليس من شدة البرودة.. تركت روحها وحررت ما بعينها من دموع.. وأخذت تبكي بصمت كما اعتادت.. أخذت تبكي بصمت رغم أنها تجلس وحيدةً أمام البحر..

فقد جاءت إليه هاربةً من كل شيء حتى ذاتها.. للبحر قدسيةٌ خاصة،

وحده البحر من يعرينا أمام أنفسنا.. وحده البحر يعلم خبايانا وأسرارانا مهما تفننا في إخفائها..

أمامهُ تسقط شعارات الثبات والقوة، وتحل محلها المعاناة الحقيقية التي نحياها..

أمامهُ ترتجف قلوبُنا لما تحمله من أوجاعٍ وتهتز بقايا أرواحنا الهشة..

أمام البحر تسقط الدموع رغمًا عنا..

الجلوس أمام البحر هى اللحظة التى يرفع فيها غطاء الستر عنا، لنجد أمام أنفسنا ما أمضينا حياتنا هاربين منه.

وحده البحر نظهر أمامه ضعفنا دون خوف أو قلق.. وحده البحر رؤوف بنا رغم كونه بحر.

انتهت أم كلثوم من أغنيتها، وانتهت هي أيضا من بكائها.. ثم نظرت ناحية القمر وابتسمت في مرارة وهي تنزع سماعات الرأس من أذنها.

تركت السماعات وهاتفها جانبًا، وأخذت نفسًا عميقًا محاولةً أن تستنشق هواءَ الإسكندرية بأكمله..

ثم زفرت بهدوءٍ على أمل أن تهدأ أمواج البحر أيضًا والتي تتلاطم مع بعضها البعض معلنةً عن ضيقِ البحرِ من فرط كتمان أسرار البشر..

أخذت تبتسم بلطفٍ من نسمة الهواء الباردة التي تداعبها في هذه الليلةِ الشاتيةِ.. عبثت بأناملها في خصيلاتِ شعرِها الأشقرِ المموجِ الذي يرقص على هواء البحر.. ثم مدت قدميها حتى لمست أصابعها الماء وفردت ظهرها على رمال الشاطيء.. وضعت كفيها أسفل رأسها ناظرةً ناحية السماءِ وبدأت تحدث النجوم متسائلةً:

-كيف يكون النسيان؟

ابتسمت بسخرية من تسائلها ثم واصلت حديثها قائلةً:

-فقد كان ذاتي..

فكيف يمكنني أن أنساه؟!

كيف أنسى من كان عالمي ومأواي؟! كان وطني الذي لا أعرف سواه.. كان كل شئ بالنسبة لي.. والحزن كل الحزن لكونه كان.

أحببتُه أيتها النجوم بكل ما وهبني الله من حبٍ لكنه لم يبالِ بهذا ورحل.

ضحكت بصوتٍ عالٍ من فرط الأسى ثم أكملت:

-أنا ليل.. وعتمةُ الليلِ تكسوني..

فتاة في منتصف العقد الثاني من المفترض أنها تزهر في ذلك العمر لكنها ذبلت.. ذبلت رغم كل محاولاتها في الإزهار.. خانها الحب وجعلها فارغةَ القلبِ ممتلئةً روحها بالأحزان.

صمتت لثوانٍ ثم عادت إلى حديثها مع النجوم قائلةً:

-أقسم لكِ أن أتعس وأشق أنواع الفراق هو الفراق الذي يأتي دون إنذارٍ مسبقٍ.. أعني أنه دون مقدمات.. يرحلون فيصبحوا عابرين بعدما كانوا أقرب إلينا من أنفسنا.

رحل عنى ولا أعلم لما؟ جاءني في مساء ليلةٍ تعيسةٍ وأخبرني بمنتهى اللامبالاة أنه عاجز في هذه العلاقة، ولا يمكنه الاستمرار أكثر من ذلك.

أحبه منذ زمن، ليأتي بالنهاية ويرحل دون أن يلتفت لي!

يا لحسرة قلبي..

تنهدت ثم فكت ذراعيها من تحت رأسها لتنهي حديثها بنبرةٍ منهكةٍ..

-اليوم هو عيد ميلادي.. في ذلك الوقت من كل عامٍ كنا نأتي هنا سويًا نحتفل ونتسامر وتملأ ضحكتنا أجواء هذا البحر..

اليوم أتيت أنا ولم يأتي هو..

اليوم بكيت بدل أن أضحك..

اليوم يملأني الخوف والسكينة لن تعد تعرف طريق لي..

اليوم هو يوم وفاة روحي وبقاء جسدي.

قالت هذا وأخذت تبكي على خيبة أملها في حبها الأول والوحيد.

كل شئ بالحياة يشفى إلا الخيبات.. خيبات الأهل، خيبات الأصدقاء، خيبات الحب، خيبات التعليم، خيبات من لا نظن يوما أنهم سيخيبون أمالنا بهم.. خيبات من تمسكنا بهم بشدة وأفلتوا هم أيدينا بسلام.. خيبات الحياة التى تبتر قلوبنا من حينٍ لآخر.. خيبات العهود التى تتبخر ولا يبالي بها أحد.. خيبات الخذلان التى نبتلعها رغمًا عنا.. خيبات الذات حيث نظن أننا أصبحنا أكثر قوةً مما مضى، لنجد أنفسنا نبكي حين يسقط فنجانَ القهوة من بين أيدينا.

الخيبات ألمٌ مزمنٌ لن يتعافى منها المرءُ أبدًا.

أخذت تجهش بالبكاء حتى نهضت مفزوعة من جلستها، حينما اصطدم شيء من الماءِ بطرفي قدمها اليسرى..

وقفت مسرعة ونظرت إلى ذلك الشيء الذي أخرجه البحر من باطنه لتجد ما لم يخيل إليها يومًا أن تجده.

في أحد الحانات الليلية بالإسكندريةِ..

تلك الحانات تروق لي كثيرًا.. بداخلها يتحرر الجميع من كل شيء.. حتى أنفسهم.. يتحررون منها أيضًا، على أبوابها يترك الجميع ثوبَ العفة ويرتدي ثوبَ حقيقته..

بداخل الحانات تسقط أرواحَ البشرِ الزائفةِ وتظهر أرواحهم الحقيقية الصادمة.. ويتعرى الجانب المظلم من أنفسهم.. الجانب الذى يسترونه بالعبادات والشعارات الدينية..

هنا يظهر عهر وقبح البشر في أبهى الصور..

هنا تسمع وترى ما لا أذن سمعت ولا عين رأت..

فالخمور تذهب عقولهم، والنساء تذهب آدميتهم..

الحانات هى المكان الوحيد المباح بداخله كل شئ.

الحانات يوجد بها أعظم وأخطر شئ بالحياة، يوجد بها اللاقانون .

بداخل الحانات تفعل كل ما يروق لك وتهواه.. لذا تجد بها جميع أنواع البشر..

بداية من المتقي الذي يردد اسم الله كل ثانيةٍ، حتى الكافر الفاجر الذي لا يعرف حرام ولا عيب.

من بين كل هذا الزحام أجلس أنا على الطاولة ناظرًا إليها بكل إعجابٍ.. أجلسُ مبتسمًا ابتسامةً خفيفةً لا أعلم علتها..

ربما تكون من الخمر التى أتناولها الآن، أو لأنني أراها ترقص أمامي..

لا يهم السبب، يكفى أنني مبتسم.

أنهت رقصتها، وصفق الجميع لها، وحيتهم هى بكل الحب، ثم جاءت وجلست على طاولتي..

اقتنصت من علبتي لفافة تبغ وأشعلتها، ثم زفرت الهواء بوجهي بمنتهى الكبرياء..

أبتسم ابتسامةً واسعةً لتقول وهى بملامحٍ جامدةٍ مشيرةً بإصبعها:

-ترى هذا الذي يجلس بعيدًا.. هذا رجلُ أعمالٍ مشهورٌ بالإسكندرية.. وهذا الذي يداعب تلك الفتاة الحمقاء التى تجلس معه.. توفى أبوه منذ فترةٍ تاركًا له ثروةً هائلةً.. وأيضًا ذلك الوسيم الذي يجلس بجوارنا هذا.. تزوج أجنبيةً وأخذ منها ما يكفي من أموالٍ ثم طلقها.

تأملتني لثوانٍ، ثم زفرت الهواء بوجهي للمرة الثانية لتقول بسخريةٍ:

-لك أن تتخيل أنه من بين كلِّ هؤلاء الأثرياء -الذين يتمنون نظرة واحدة مني- لا يروق لي سواك أنت أيها الأحمق.

ضحكت من صراحتها وقبل أن أتفوه سبقتني هى قائلة:

-أعلم أنكَ لست أقل ثراءٍ منهم..

لكنّك هادئٌ صامتٌ عنهم، وهذا ما جذبني لك.. فقلبي يهوى كل رجلٍ وسيمٍ قليلَ الكلام.. مثلك تمامًا. وقليل الكلام يلفت أنظار الجميع بنيران قلبه المشتعلة التي يسعى دائمًا لإخفائها..

وذلك الهدوء الذي تدعيه ما هو إلا هدوء ما قبل العاصفة فقط.

قطعها النادل ووضع أمامنا كأسين من الخمر.. صمتت لثوانٍ حتى رحل واقتربت مني متساءلةً:

-من أنت؟ وما الذي ألقى بموجك هنا؟

منذ فترة وأنا أراك هنا.. تأتى كل ليلةٍ بمفردك.. في كل ليلة كنت أرقص على أمل أن تفعل مثلهم..

أنتهى من رقصتي، ثم تدعوني للجلوس معك،

لكنك لم تفعل هذا وسقط قناع كبريائي وأتيت أنا.

وضعت قدم فوق الأخرى وهي تنهي حديثها قائلةً:

-وهذه واحدة من المرات النادرة التي يجذبني فيها أحد الرجال وأرغب بقضاءِ ليلةٍ معه.

ضحكت بشدة من نرجسيتها بالحديث، ثم تناولت كأسًا من الخمر وتجاهلتُ حديثها وتساءلت بلؤمٍ:

-وكيف عرفتِ أنني لست أقل ثراءٍ منهم؟

ضحكتْ بصوتٍ عالٍ وركلتني بكتفي وهي تقول:

-ما أريد أن أعرفه.. أعرفه بإشارة واحدةٍ مني.

راقت لي كثيرًا منذ النظرة الأولى.. راقت لي.. ليس لجسدها لكن لجمالها.

بالفعل كما قالت، آتي إلى هنا بمفردي منذ فترة ليست بالطويلة..

أتيت أول مرة ليس من أجل النساء، لكن من أجل أن أتوه من عقلي وسط هؤلاء السكارى.. ربما يغفو عني قليلًا.. لكنه ولتعاسةِ حظي لم ولن يغفو أبدا.

منذ أن أدركت وعقلي يؤلمني من فرط التفكير.

وآه من التفكير، فإنه لعنتي التي أصبت بها كما أصيب آدم بلعنة الخروج من الجنةِ.

في أول ليلةٍ أتيت فيها إلى تلك الحانة رأيتها تتلوى بجسدها الأبيض على خشبة المسرح..

رأيت الجمال والدلال يرقص.. من يومها وأنا موهومٌ بها..

لا أعلم عنها شيء لكن من النظرة الأولى لها وكل شيء بداخلي تساقط..

أفكاري، وتعاستي، وحزني ومعاناتي.. كل شيء تساقط، حتى أنا.

وكأن بها شيء يجعلك تغيب عن الوعي.. شيء يجعلك لا تريد أن تفعل شيئًا سوى أن تتأملها.

هل هذا هو الحب؟

لا أظن ذلك.. فأنا مستهلكٌ.. لا يوجد بداخلي شيء من الحب..

وأيضا هي فتاة ليل، وفتيات الليل لا يعرف الحب طريقًا لهن.

لا أعلم سر إعجابي بها، لكن عيني تمتعت برؤيتها.. هي من جعلتني أعود إلى ذلك المكان وأتردد عليه كثيرًا.. هي من جعلتني أكفر بذاتي وأؤمن بعينيها.

قطعت شرودي سريعا قائلةً:

-دعنا نلعن العالم سويًا في منزلك..

قالت هذا وألقت ضحكةً مرتفعةً، وضحكت أنا أيضًا بعد أن هززت رأسي موافقًا.

وقفنا خارج الحانة أخذت تلتفت حولها ثم تساءلت:

-أين سيارتك؟

ابتسمت وأنا أشير بأصبعي ناحية دراجتى النارية قائلًا:

-هذا هو المفضل بالنسبة لي.. فأنا لا أطيق خنقة السيارات، هيا بنا.

ركبت خلفي وظلت تضحك بشدة، والهواء يجعل شعرها الأسود يتطاير، حتى وصلنا إلى منزلي.

فتحت باب الشقة وأنا أقول بمنتهى الفخر:

-مرحبا بكِ في عالمي العشوائي.. حيث لا يوجد بداخله إلا ما هو عبثي وفوضوي.

ركلتني في صدري وهي تخطو داخل الشقة قائلةً:

-يليق بكَ دور الفيلسوف كثيرًا.

كانت تظن أنني أبالغ في وصفي لشقتي، لكنني لم أبالغ..

فهى تشبهني كثيرًا في فوضويتي وعشوائية تفكيري.

دومًا ما أظن أنَّ الأماكن تشبه أصحابها.. الأماكن النظيفة والمرتبة تدل على صاحبها المنظم والممل.. والأماكن التى تكون مرتبةً بشكلٍ يبدو منظم لكنها ليست كذلك حين تنظر لها بدقةٍ.. تلك الأماكن تدل على مزاجيةِ وضيقِ خُلُقِ صاحبها.. الأماكن المهلهة التى لا يوجد بها شيء بمكانه الصحيح تدل على عبث شخصيةِ صاحبِها.

الأماكن التى نسكن بها تشبهنا كثيرًا.. فسعادتنا تجعل المكان مبهجًا بطريقةٍ لطيفةٍ.. وأحزاننا أيضا تجعل المكان شاحبًا وكئيبًا للغاية.

خففت من ملابسها، فخلعت البعض منها.. لتبدو أكثر جمال مما كانت عليه بالحانة..

سبقتها ناحية الشرفة بعد أن استبدلت ملابسي بسروالٍ قصيرٍ وتركت النصف العلوى عريانًا.

نظرت لها قائلًا:

-الخمر توجد بالمطبخ الذي يوجد على يمينك هذا.

سريعًا ما أحضرت زجاجةً من الخمر وكأسين وجاءت إلى الشرفة.. لتجدنى جالسًا على سور الشرفة، فشهقت قائلةً:

-كيف لك أن تجلس هنا أيها الأبله؟ ربما تتفلت قدمك فتسقط.

أجبتها برتابةٍ قائلًا:

-لا تقلقين.. فقد اعتدت على هذا.

-اعتدت على ماذا أيها المجنون؟!

فالمنظر مرعب من هنا ونحن لسنا بالطابق الأول لتفعل هذا.. فربما نحن بالطابق السادس لأن الطريق يبدوء بعيدًا من هنا.

انتهيت من إعداد لفافة الحشيش الثانية، ونظرت لها قائلا بسخريةٍ:

-نحن بالطابق العاشر وليس السادس.

شهقت بشدة ثم نطقت بلفظٍ بذيئٍ تعبيرًا عن تعجبها وخوفها في وقتٍ واحدٍ.

ضحكتُ بصوت عال من ردة فعلها، ونزلت من على السور متجهًا إلى جهاز الموسيقى وضغطت على زر التشغيل وأنا أشعل لفافة الحشيش.. ليبدع "Jurrivh" في عزفته الأقرب إلى قلبي " let You Down ".

عزف البيانو له مذاقٌ خاصٌ لا يشعر به إلا القليل.. يجعلك في حالة لا وصف لها.. يجعل كل شيء بداخلك تائهًا.. فلا الحزن حزن ولا الفرح فرح.. جميع المشاعر بداخلك تختلط ببعضها..

عزف البيانو أو سماعه شيءٌ لطيفٌ للغاية..

الأمر يشبة نزول المرء للمحيط وهو عريان حيث يطفو فوق الماء محررًا ذاته من قيود العالم التعيسة.

نظرت ناحية الساعة لأجدها الواحدة بعد منتصف الليل.. عدت لها فوجدتها جالسة واضعة قدم فوق الأخرى.. تبرز صدرها من بين كتفيها لتظهر جماله وهي تدخن الحشيش من بين شفتيها المصبوغة باللون الأحمر الفاقع.. تجلس شاردة تنظر ناحية اللاشيء.

-مساءُالخيرِ.

قلتها مبتسمًا بنبرةٍ شبه ثقيلةٍ وأنا أجلس أمامها والطاولة بيننا.. لتعود هي من شرودها متسائلةً بنبرة هادئة:

-ألم تخف أن تهوى فى أحد المرات من على هذا السور؟

أعني، أنت لا تخاف من الموت!

ابتلعت ريقي مجيبًا بمنتهى الهدوء والعفوية: لا أخافه ولا أتمناه..

-الموت لا يعني لي شيء من الأساس.

الجلوس على الشرفة شيء يجعلني أشعر بالارتياح فأفعله دون الاهتمام باحتمالات نتائج ذلك الفعل.

تناولت كأس من الخمر التي أعددته هي ثم تابعت قائلًا:

-يموت الإنسان حقًا حين لا يفعل كل ما يُحبه ويؤمن به.

أزاحت شعرها ناحية الخلفِ وزفرت بضيقٍ ثم قالت بنبرةٍ مجهدةٍ:

-أسوأ لعنة ممكن أن يصاب بها المرء هي الخوف.

تخاف من كل شيء ومن أي شيء.. تخاف أن تحب لينفطر قلبك..

تخاف أن تتحدث لتخطأ..

تخاف أن تحلم لينقلب الحلم كابوسًا.

تخاف أن تبكي حتى لا يسخر منك أحد..

تخاف أن تضحك حتى لا يستهزأ بك أحد..

تخاف، تخاف، تخاف حتى يملأ الخوف روحك.

وضعت وجهها بين كفيها ونظرت إلى قدميها وواصلت حديثها قائلةً:

تخاف حتى تخاف أن تخاف.

رفعت رأسها ونظرت بشدة في عينيّ الحمراوين من أثر الحشيش والخمر قائلةً:

-إياك والخوف.. فالخوف قاتلٌ.

انتهيت من لفافة الحشيش وتناولت كأس آخر من الخمر..

أريد أن أتناول بحرًا من الخمر وليس كأسًا واحدًا.. حتى لا أشعر بذاتي وخاصّة في هذه الليلة.. أريد أن يذهب عقلي إلى اللاوعي.. أريد أن لا أشعر بشيء..

أريد أن أتحدث وأبوح لها بكل أسراري.. فقد هلك قلبي من فرط الكتمان.. أقسم على ذلك.

تلعثمت بالحديث وأنا أتساءل:

-من أنتِ؟

تناولت هي الأخرى كأسًا من الخمر.. فقد شعرت من عينيها أنها بحاجةٍ للحديث، فربما هلك قلبها من كثرة الكتمان مثلي.

فالكتمان يقتل الروح ويجعلها تشيب بالبطيء.

وحده الله يعلم معاناة الذين يكتمون داخل أنفسهم..

الذين يساندون الجميع على النجاة من أحزانهم ويغرقون هم بين أمواج بؤسهم وتعاستهم.. الذين يخرجون للعالم مبتسمين رغم خرابهم الداخلي..

الذين يعملون ليل نهار.. ليسوا راغبين في الأموال بقدر ما هى محاولة لتجنب الجلوس مع أنفسهم حتى لا ينهار ثباتهم..

الذين يبتسمون رغمًا عنهم حتى لا يزيدوا العالم تعاسةً..

وحده الله يعلم كم هو قاسٍ ومؤلمٌ أن يعاني المرء في صمت تام دون أن يعلم من حوله أنه يعانى من الأساس.

هزت رأسها ونظرت إلى عيني لكنها لا تراني..

كان يبدو عليها أنها ترى شخصًا آخر في عيني ثم أجابتنى بنبرةٍ رتيبةٍ وكأنها قالت هذه الإجابة من قبل:

-أنا امرأة في مطلع الثلاثين من العمر.. امرأة بلا عائلة.. بلا رفيق أو حتى حبيب.. أنا الآن امرأةٌ فارغةٌ.. أنا الآن بائعةُ هوى.

بائعةُ هوى فقط.

ضحكت ضحكة متقطعة وصفقت لنفسها قائلة:

- برافو.

أرادت أن تغير مسار الحديث سريعًا وقالت مداعبةً:

-دعك منى وأخبرني، مين أين لكَ هذا الجمال؟

اقتربت منى بعض الشئ، وبدأت تتحسس وجهي بأناملها الناعمة حتى وضعتها على شفتاي ثم أكملت قائلةً:

-شابٌ أبيضُ اللونِ.. يمتلك عينين سوداوين تكفيان لإيقاع مئات الفتيات في جماله.. شعره كثيفٌ وبنيُّ اللونِ..

ثم حركت أصابعها ناحية صدري وواصلت حديثها هامسةً:

-لكن الذي يزيد جماله هو جسده الرفيع الذي يملؤه بالرسومات (التاتوهات).

اقتربت مني أكثر وهي تضع يدها على فخذي ثم تسائلت:

-في العشرين أنت؟ أليس كذلك.

شعرت بالارتباك من همسها واقترابها البالغ مني.. فأزحت يدها بعيد عني وابتلعت ريقي ونهضت من مقعدي حتى أخفي ارتباكي هذا، ثم قلت:

-نعم.. أنا في أواخر العشرين من العمر.

انفجرت ضاحكةً لأنها أدركت قلقي ثم قالت:

-سأذهب لأحضر القليلَ من الطعامِ حتى تستعيد أنت هدوئك مرةً أخرى.

بمجرد أن خرجت من الشرفة لعنت نفسي وصفعتني على وجهي لأنني ظهرت أمامها كطفلٍ صغيرٍ.

-ها قد أتيتُ أيها الوسيم.

رددت مسرعًا بعفوية:

-وليتك لم تأتِ.

نظرت لي باستحقار لكنى ابتسمت.. أقدمت ناحيتي حتى وقفت بجواري ونظرنا ناحية السماء تسائلت في هدوءٍ:

-من أنتَ؟

استنشقتُ القليلَ من الهواء.. أشعلتُ لفافة تبغٍ أخرى وأخذت أفكر.. فكان تسائلها بسيطًا لفظيًا، لكنه كان أكثر تعقيدًا معنويًا..

ففي أوقاتٍ كثيرةٍ لا يعرف المرء من هو؟

وأنا رغم عمري هذا ونضوجي ذاك إلا أنني لا أعرفني!

تنهدت ثم أجبتها قائلًا:

-لا أعلم من أنا.. ربما أنا الهواء.. ربما أنا الغموض.. ربما أنا السراب..

وهذا ما أظن دومًا.

كثيرا ما شعرت أنّنى سرابٌ..

فلا أنا شيء ولا أنتمي لشيء.. مجرد شاب يقضى حياته فى هدوءٍ.. دون أن يعلم هل يجب أن يقضيها أم لا؟! دون أن يعلم هل يقضيها بالطريقة الصحيحة أم لا؟! دون أن يعلم إلى متى سيقضيها هكذا؟!

الأمر يشبه سباق العداء..

فأنا أركض وأركض، لكني لا أعلم متى سأصل.. أركض بلا هدف.

ضغطت بيدي على سور الشرفة ثم تابعت بمنتهى القهر قائلًا:

-أنا لا أعلم أي شيء عني..

لكن أنا من قدر له أن يأخذ أصعب شيء في كل شيء.

ضحكت باستهزاء، ثم قالت:

-معادلة كيميائية أنت أم ماذا؟

التفتّ لها ثم أجبتها سريعًا..

-أنا أكثر معادلة كيميائية تعقيدًا على الإطلاق.

حاولتْ تخفيف كئابة الحوار قائلةً:

-هل سنقضي ليلتنا هنا في هذة الشرفة أم ماذا؟

أين فراشك أيها الأحمق؟

ابتسمت من طريقتها.. لتقترب هي وتضع قبلة على كتفى لتجعل روحى تذوب كما يذوب الثلج في الشمس.. ظللنا نتبادل النظرات صامتيْن،

لكن أعيننا لم تكن كذلك..

شعرت من نظراتها أنها تعرف حقيقتي.. لكنها ترغبنى أيضا..

وكان ذلك يربكني.. لوهلةٍ رغبت فى الاستسلام لعينيها..

فتجاهلت ذاتي وعقلي فقد مللت من الحروب معاهم وأريد الاستسلام الآن.

فليحدث ما يحدث.. لا يهمني، فقد تألمت حتى توقفت عن الألم.

قطعتْ ذلك الصمت ثم قالتْ:

-حدثني عن الحياة بالنسبة لك.

هززت رأسئ واستجمعت شتات أفكاري المبعثرة دائمًا وأبدًا، ثم أجبت قائلًا:

-وما الحياة إلا رقصة..

منا من يرقص على أوتار الألم.. ومنا من يرقص على أوتار السعادة.

ابتسمت من فلسفتي، ثم جلست وتساءلت..

-وعلى أي أوتارٍ ترقصُ أنتَ؟

جلست أنا الآخر، ونظرت إلى زجاجةِ الخمر الفارغةِ قائلًا:

-أرقص على أوتار بؤسي وتعاستي.. أرقص على أوتار خيباتي بالحياة، وسخرية القدر منى..

على رحيل من توعدوا بالبقاء دومًا.. على الوحدة التى أحياها..

أرقص على السلام النفسي الذى لم أنعم به يومًا.

أطحت زجاجة الخمر أرضًا، وقلت بصوتٍ عالٍ:

-أرقص على قلة حيلتي، وعلى ما أصبحت عليه.

كنت أظنها سوف تشعر بالخوف من ردة فعلي، لكن حدث العكس..

خبطت بكفها على الطاولة وهي تقول بحماسٍ:

-حسنًا.. دعنا نرقص.

خطت ناحية جهاز الموسيقى، وجعلت صوت مرتفعًا جدًا، وأنا أنظر لها بتعجب شديد.. حالفها الحظ وكانت هذ هي المعزوفة التي أحبها بشدةٍ.. أخذتْ تلوّح بيدها وترقص..

تبدلت ملامحى ونظرت لها مبتسمًا.

أخذت ترقص كما لو أنها تفر من أحزانها بين نغمات الموسيقى.. فقد أدركتُ أنها حزينة من أول ليلةٍ رأيتها بها..

فكانت ترقص على المسرح بمنتهى الأسى..

أدركت أن الحزن متعفنٌ بقلبها منذ زمنٍ.. لم يكن ذلك دهاءًا منى.. فقط أدركت هذا لأن ذلك العفن يملئني أنا الآخر..

فالتعساء المغلبون على أمرهم يعرفون بعضهم من النظرة الأولى.

أخذتْ بيدي لأرقص معها..

لم أعارضها رغم أنني لا أجيد الرقص لكنني أحبه..

أحب الرقص، وأحب من يرقص، وأحب كل شيء يدفع ناحية الرقص..

فالرقص يخدر الروح ويسكن أوجاعها.

جذبتني ناحيتها، وسريعًا قامت بتقبيلي..

لم أستطع أن أفعل شيء سوى أنني سلمت لها، وبقيت واقفًا كما أنا حتى انتهت من تقبيلي وانتهت المعزوفة أيضًا.

خفضت صوت الموسيقى كما كان، وبدأت تتجول في الشقة.. وقفت أمام المكتبة ونظرت إلى رف الروايات وأمسكت بواحدةٍ منهم وقالت:

- تحب القراءة؟

هززت رأسي -أي انه نعم-

وأضفت قائلًا:

-وأحب الكتابة أيضا.

فركتُ فروة رأسي ثم أكملتُ قائلا بنبرة متلعثمةٍ:

-لولا الموسيقى وقراءة الروايات والكتابة لقتلت نفسي منذ زمن،

فأنا مدينٌ لهذه الأشياء بالكثير..

فقد كانت تعويضًا لي عن بشاعة العالم.

نظرت لي ببراءة قائلةً:

-لطيف أنت كثيرًا يا...

أكملت جملتها قائلًا:

-مالك.. اسمي مالك.

-لطيف أنت كثيرًا يا مالك.

أخذت تكمل جولتها حتى أمسكت بأنتيكتي المفضلة قائلةً بسخريةٍ:

-ما هذا؟

التفت يمينًا ويسارًا وكأنني لم أسمعها.. فقد كانت أنتيكة بسيطة لولد صغير شعره أصفر ويرتدي (كسكستة).. وكان شكله يثير الضحك..

أخذتها من يدها قائلًا:

-شكوكو.. سميتُه شكوكو.. وهو صديق وحدتي.

ابستمت، ثم نظرت خلفها وأشارت بإصبعها ناحية صور معلقة متساءلة:

-ومن هذة السيدة الأنيقة؟

نظرت للصورة ونظرت لها وبقيت صامتًا بعد أن تحولتْ ملامحي إلى ملامح منكسرة.

بقيت صامتًا كما أنا لتقول هي:

- دعنا نعود للشرفةِ مرةً أخرى.

جلسنا بالشرفة مرةً أخرى.. كل منا ينفخ دخان الحشيش في الهواء، وكان الدخان يرسم هزائمنا بالحياة.. قطعت هي ذلك الصمت قائلةً:

-الحشيش أم الخمر؟

أجبتها دون تفكير:

-الحشيشُ لا محالةَ.. فمهما كانت حجم المشكلة فالحشيش يجعلها صغيرةً للدرجةِ التي تجعلني لا أتذكرها من الأساس.

أعجبها ردي كثيرًا، وقبل أن يحل الصمت علينا مرة أخرى تساءلتُ:

-هل صادفتِ الحبَ يومًا؟

-نعم.. وقد كان أجمل حب في حياتي.

بدت علامات الاستنكار على وجهي وأنا أقول بنبرةٍ متقطعةٍ..

-لكنك.. لكنك فتاة ليل.. وفتيات الليل لا تعرف الحب.

اتسعت عيناها وهي تقول:

-ومن أخبرك بهذا؟!

-لا أحد.. تنبؤ مني ليس أكثر.

أجابت بنبرة ثملةٍ للغاية:

-فتيات الليل هن أكثر النساء معرفة بالحب..

وأكثرهن انهزامًا منه أيضًا.

فتاة الليل يزور الحب قلبها كما يزور الفتيات الأخرى.. لكن الفارق بينهن أن فتاة الليل يزور الحب قلبها مرة واحدة بالعمر.

تساءلت بفضولٍ:

-ومن الذي ملأ قلبك بالحب؟

ابتسمت وقد بدا على ملامحها أن السؤال راق لها كثيرًا.. شردت قليلًا ثم ضمت يدها إلى صدرها قائلةً بابتسامة خفيفة تشير إلى حبها لذلك الشخص..

-رجل واحد فقط من روى قلبي بالحب..

كان فى الأربعين من العمر، ملامحه مثيرةٌ للغايةِ، عينه، لحيته الخفيفة، بشرته الخمرية التي تؤكد على جنسيته المصرية، جسده العريض من الأعلى..

كل شيء حتى أدق تفاصيله دفعتني إلى حبه.

ظلت صامتةً وكأنها مترددة من شيء ما ثم تابعت قائلةً:

-كان يسمى يونس وفي تلك الليلة والوحيدة التي قضيناها سويًا..

تخلى عن قناع ذكوريتة المتغطرسة، وبكى بين ذراعي، وأخبرني بشئ لم أفهمه حتى الآن..

أخبرني أنه يعاني من هلوسة سمعية من فرط تناوله للكحول.. فقد كان يعتقد بأن هناك شخصًا غير مرئي يحدثه..

وللأسف الشديد كان يستجيب له ويخوض معه أحاديثًا كثيرةً وكأنه شخصٌ حقيقيٌ.. لدرجة أنه أطلق على ذلك الصوت اسم أوزيل..

وكان يحاوره بالساعات وكأنه شخصٌ حقيقيٌ وليس مجرد صوت داخل عقله.

تعجبت من قصتة ومن انجذابها لذلك الشخص الغريب فتساءلت بسخريةٍ:

-ولما أحببتِ أوزيل؟

ابتسمت بسخرية قائلة..

-لا يمكن لأحد أن لا يحب أوزيل.

أخذت شهيق وأخرجته على فتراتٍ قائلةً:

-صدقني لا يهمني اسمه أو قصت.. يهمني حقًا أن نلتقي مرة أخري، فقد حطم قلبي بين أمواج الفراق.

هذه هي المرة الأولى التي أدرك فيها أن فتيات الليل تمتلك قلبًا..

تحب وتكره مثلنا..

كنت أظنهنّ جسد فقط لا يشعرن بشيء ولا يعنيهن أحد..

كل ما يهمهن هو جمع أكبر قدر ممكن من الأموال..

كيف كنت أظن ذلك؟

فكونهن فتيات ليل لا يمنع كونهن آدميات..

آدميات لم تبتسم لهن الحياة كثيرًا كما ابتسمت لغيرهن مرارًا وتكرارًا.

-وأنت.. هل صادفت الحبَ يومًا؟

تنهدت قائلًا:

-صادفت الحب مرتين..

مرة رحل عني تاركًا خرابًا وعتمةً في روحي..

ومرة لم أرغب به، لكن أبقيته بجواري كونيسٍ.

قلت هذا وبقيت صامتًا، وكانت هي تتأملني بشدة ويبدو عليها أنها مستمتعةٌ بما أقوله..

انفعلتْ مرةً واحدةً قائلةً:

-أكمل.. لما سكتَّ أيها الأبله؟

هدئت من روعها، ثم قالت بنبرةٍ معتذرةٍ:

-آسفة.

لم أنظر لها، ولوحت بيدي في عدم اهتمام بذلك الأسف، واتجهت برأسي بعيدًا عنها..

أزاحت شعرها إلى الخلف، ثم أعادت وجهي لها ونظرت في عيني قائلة:

-عليك أن تعلم شيئًا واحدًا فقط.. ضعه الآن ودائمًا في ذهنك..

"أنا عابرة بالنسبة لك.. والعابرون لا يمكنهم إيذائنا لأنهم عابرون.. لأننا لن نجتمع بهم مرة أخرى.. والكثير من العابرين يكونون هديةً لنا من القدر حتى نخبرهم ما لم نبح به طوال حياتنا ثم نرحل.. العابرون يستمعون ثم يرحلون في صمت كما أتوا فلا تخف منهم.. خف من المقربين لكن لا تخف من العابرين لأنهم راحلون لا محالة".

أمسكت بيدي كى تطمئنني ثم تابعت قائلةً:

-تحدث.. أنا أريد سماعك.

أخذت ألتفت يمينًا ويسارًا حتى لا أنظر إلى عينيها، فنظرات العيون تفضحنا.. لذا أتجنبها دومًا.

بالفعل كنت أريد التحدث وكنت أرغب فى أن يستمع لي أحد.. ولكن لم أجرؤ مرةً واحدةً على الحديث، على الرغم من وجود الكثير حولي..

على الرغم من كوني امتلك الكثير من الأصدقاء والمعارف إلا أننى وحيد..

وحيد لدرجة أننى لا أمتلك من وسط كل هذا الزحام الذي حاوطني شخصًا واحدًا فقط أستيطيع أن أبكي أمامه دونما خوف أو حرج.

الكثير من الأصدقاء أصدقاء لنا بالصور فقط وليسوا أصدقاء لنا في الحقيقية.. بالفعل نتحدث معهم كثيرًا ونتسكع معهم أكثر، لكننا نشعر بالوحدة دوما.. ليس عيبًا منهم.. نشعر بالوحدة لأننا لم نشعر بالأمان معهم.

الأمان هو الذى يساعد المرء على مواصلة حياته.. لأنه يعلم مهما ضاقت به الحياة سيجد بالنهاية شخصًا واحدًا على الأقل يعانقه ويربت على كتفه، فيشعر بالأمان مرة أخربويقدر على مواصلة حياته.

سلام على الذين ينزعون الخوف من قلوبنا تاركين مكانه السكينة..

سلام على من يجعلوننا نشعر بالأمان فى وسط ذلك الواقع الذي أصبح الأمان به سنة والرعب فريضة.. سلام كل السلام على الذين يقدرون قلقنا الدائم من أبسط الأمور دون محاولة للتسخيف أو السخرية من مشاعرنا المهتزة.

شبكت أصابعي ببعضها وعزمت على الحديث.

عزمت على الحديث لأنني شعرت بالأمان رغم أني لا أعرفها..

عزمت على الحديث لأنه ليس من العدل أن يموت المرء دون أن يفرغ ما بقلبه.

فكل منا من حقه أن يبوح عن أحزانه وآلامه ولو لمرةٍواحدةٍ قبل أن يرحل عن الحياة.. ومن حقة أيضًا أن يجد من يقدر ويستمع لأحزانه دون الاستهزاء بها..

-حسنا سأتحدث.

ابتسمت ابتسامةَ نصرٍ.. أراحت ظهرها إلى الخلف وقالت مسترخيةً:

-وأنا منصتةٌ لك.

تاهت الحروف في فمي.. وتلعثمت بالحديث حتى ابتلعت ريقي واستجمعت ما تبقى من قوتي قائلًا:

-يمكن للحياة أن تمنحك أي شيء لكنها لن تمنحك الحياة ذاتها.

فأنا لم أحيي يومًا ولم أتلذذ بالحياة.

ولدت في لبنان حيث الثراء.. أب ثري وأم أنيقة ومثقفة.. أب ثرى للدرجة التي جعلته جهاز -ATM- بالنسبة لي ولأختي.. معظم وقته كان يقضيه بعمله، والباقي منه كان يقضيه في نزواته.

فقد عاش طوال حياته يخون المرأة الوحيدة التي أحبته بصدق.

هربت دمعة من عيني وأنا أدندن قائلًا:

كنت بخلصلك في حبي بكل قلبي.. وإنت بتخون الوداد من كل قلبك.. بعت ودي ليه؟

بعت حبي ليه؟

بعت قلبي ليه؟

بعتني وفكرني ليه؟

أستنى قربك ليه؟

أستنى قربك ليه؟

أستنى قربك ليه.. ليه.. ليه؟

نظرت ناحية اللاشيء وأنا أهز قدمي من توتري وأكملت قائلًا:

-الكثير من التساؤلات طرحتها أم كلثوم ولم يكن لها إجابة سوى الصمت والبكاء.

كنت صغيرا وأنا أراها تستمع إلى تلك المقطوعة الغنائية وتبكي.. لم يكن بكاء عادى بل كان بكاء حار.. وحينما كنت أسألها عن سبب بكائها كانت تخبرني أنها متعبة قليلا وليس أكثر من هذا.. لكن عندما كبرت أدركت أنها تبكي على قلة حيلتها وضعفها في ذلك الحب.

فقد كان يخونها رغم توعده بالوفاء لها.

صمتت لثوانٍ ثم تابعت بسخريةٍ وأنا متجاهلًا النظر إلى عينيها:

-تعلمت من أبى..

إن أكثر الناس توعدًا لنا بالإخلاص هم أكثرهم خيانةً لنا أيضا.

ضحكت بصوتٍ عالٍ من فرط الوجع وعبثية حياتي لكني واصلت حديثي:

- أبى كان يقضى نزواته مع الرجال.

اتسعت عيناها لكني تجاهلتها وأكملت بث همي قائلًا:

-كنت أراه وأنا صغير لكنه لم يعلم بذلك.. كنت لا أفهم ما الذي يفعله أو لماذا يفعله من الأساس.. حتى فزعت من النوم ذات ليلة على صراخِ أمي وهي تقول:

-لقد سئمت منك ومن البقاء معك.

ليرد هو عليها بدموعٍ زائفةٍ قائلًا:

-أقسم لكِ أنني لن أفعل ذلك ثانيًا.. سوف أفعل لكِ كل ما تريدينه، لكن لا ترحلي فأنا أحبك.. دعكِ مني أنا، لكن لا ترحلي من أجل أبنائنا الصغار.

ردت عليه أمي ردًا لن أنساه طوال حياتي حينما قالت وهي منهارة بالبكاء:

-أقسم لك أنني هَلكت في حبك.

ذلك الحب الذي ملأ قلبي حينما التقيت بك لأول مرة في الإسكندرية، حينما ابتسمت لك رغمًا عني.. حينما أخبرتني أنني أميرتك الجميلة التي لا يوجد شبيه لها في ذلك الوجود.. أميرتك التى لن تغضبها يومًا.. أتتذكر؟

ذلك الحب لم أجني منه سوى القليل من السعادة والكثير من البكاء.. فكم هو مؤلم أن تجد روحك تغرق وتغرق وأنت عاجز عن النجاة بها.. كم هو مؤلم عشقك.

كثيرًا ما حاولت الابتعاد عنك لكن كل هذه المحاولات كانت تقضى بالفشل.. في صباح كل يومٍ أشعر بالخوف بدلًا من الأمان.. الآن أنا متعبة.. حقاً متعبة، فقد جعلت روحي تنزف ألمًا وقلبي ينفطر من شده الحزن دون أن أفعل لك شيء سوي الإخلاص والحب.. كان عليك أن لا تحدث كل هذه الفوضوية التى تملأ قلبي.

أقسم لك أن حبك هو أجمل شيء خلق بالحياة، لكنه أكثر شيء منهك بها.. دعني أرحل.. دعني أضيء تلك العتمة التي أحدثتها فى قلبي و روحي.

لم أبكِ هذه المرة، لكني نظرت لها وبقيت صامتًا.. صمتت هي الأخرى لبضعة دقائقٍ فكانت تعلم أنني الآن لا أتحدث لكني أنزف ألمًا.

تفوهت قائلةً:

- أكمل.

رفعت كتفي قائلًا في لامبالاةٍ..

-لا شيء.. انفصلت أمي عنه وعدنا إلى الإسكندرية من جديد.. لم تخبرنا أمي عن علة الطلاق.. كانت تخشى أن نكرهه.. فظلت صامتةً.

في أول ليلةِ فراقٍ قضتها أمي باكيةً مبتورةَ القلبِ حتى راحت في النوم.

-الفراق ليس هينًا على الإطلاق.. إنه ينهش في قلوبنا كما تنهش الوحوش بفريستها حتى تتمزق إربًا..

قالتها هي حتى تشاركني أحزاني.

أكملت قائلًا وأنا أحلق بالسماء من فرط الخمر والحشيش والموسيقى:

-كان من يهون كل هذه المأساة التي كنا نحياها بالإسكندرية هي جدتي..

كانت تقيم معنا.. ترعانا وتساند أمي على تجاوز الأمر.. لكن الحال لم يدم كثيرًا.. بعد فترةٍ قصيرةٍ توفي العمود الذي كان يحمل سقف البيت..

توفيت جدتي.. وكانت هذه أول مرة أذوق مرارة الفراق، وأعلم معنى أن تُصاب بنغزةٍ في صميمِ قلبك دون أن تعاني من مشاكل قلبية.

زفرت بشدة ونهضت من مقعدي، وأشعلت لفافةَ تبغٍ وأشعلت نيران قلبي معها على أمل أن يتوقف وتنتهى كل هذة العبثية.. نهضت هي الأخرى وربتت على كتفي قائلةً:

-يمكنك أن تكتفي بذلك القدر من الحديث إن كنت تريد.

أدركت أن القادم لن يكون حديثًا، لكنه سيكون خنجر سيدخل إلى قلبي بالبطيء.

ضغطت على شفتيّ وهززت رأسي نافيًا، وأصررت على مواصلة الحديث..

فقد خسرت كل شئ، ولم يعد لدي شيئًا أخشاه.

ابتلعت ريقى قائلًا:

-ظلت أمي بغرفتها صامتةً.. تتحدث قليلًا وتصمت كثيرًا.. تداعبنا من حينٍ لآخر، وتخبرنا أننا أصبحنا كبارًا بما يكفي لتحمل المسئولية وكأنها كانت تمهد لنا ما سيحدث..

ظل بيتنا شاحبَ اللونِ.. إضاءته خافتةٌ أغلب الأوقاتِ.. الشمس لا تزورنا، وضوء القمر ينير عتمة المنزل فى كل ليلةٍ..

كل شئ أصبح كئيبًا وهزيلًا.. ظل الحال هكذا لمدة نصف سنة حتى أصبت بأصعب نغزةٍ في قلبي على الإطلاق.

ارتجفت يداي ومعها قلبي وأنا أواصل قائلًا:

-في عتمة أحد الليالي شعرت بخوفٍ شديدٍ لم أعلم علتهُ.. سريعًا ما أزحت الغطاء عني وذهبت ناحية غرفتها.. فقد كنت معتادًا على ذلك.. حين أشعر بالخوف أذهب إليها سريعًا وأنام بين ذراعيها فأستيقظ ءامنًا مطمئنًا.

عناق أمي كان ملجأي حين أخطأ.. حين أكذب....

حين أجتاز امتحاناتي حاصلًا على الدرجات النهاية، كان ملجأي حتى عندما أفقد ذاتي.

عناق أمى كان حياةً أخرى لي أحيا بها بمفردي دون خوفٍ أو قلقٍ.

صمتُّ لثوانٍ معدودةٍ حتى أستطيع أن أواصل وضع الخنجر بقلبى ثم تابعت قائلًا:

-فتحتُ بابَ الغرفةِ فى هذة الليلة فوجدتها غارقةً في دمائها..

منذ هذه الليلة وأنا لم أستيقظ ءامنًا مطمئنًا مرةً أخرى.

نظرت لها والدموع معلقة بعيني قائلًا بمنتهى الحسرة:

-لم تتحمل أمي كل هذا وأقدمت على الانتحار.

من دون تفكير اقتربت مني سريعًا وعانقتني بشدة، وأجهشت أنا بالبكاء بحرقةٍ قائلًا بين ذراعيها بصوت يخنقة البكاء:

-كان من الممكن إصلاح الأمر لكنها رحلت..

رحلت تاركةً الحزن بقلبي.

يمكن للإنسان أن يتخلى عن حبه للعالم بأكمله وليس حبه لشخصٍ واحدٍ فقط..

لكنه يعجز عن التخلى عن حب أمه..

حب الأم يشبه الماء التى لا يمكن مواصلة الحياة بدونها..

ومن يمكنه المواصلة بالفعل..

سيواصل بقلب يملؤه الجفاف.

فعندما تموت الأم، تموت جنة الأرض وتحيا في جحيم أبدي.

ربتت على كتفي، وعادت لجلستها وتمكنت من إيقاف دموعى، ولكني لم أتمكن من إيقاف جراحي.. تنهدت ونظرت إلى عينيها قائلًا:

-مضت الأيام سريعًا حتى أصبحت بالثامنة عشر.. وأصبحت أختي بالخامسة والعشرين فتزوجت وعادت مرةً أخرى إلى لبنان.

ابتلعت مرارة الأحداث وأكملت قائلًا:

-سواء رحلوا رغمًا عنهم أم برضاهم لا يهمني، المهم أنهم رحلوا.

ابتسمتُ ابتسامة استهزاءٍ وأنهيتُ حديثي قائلًا:

-رحلوا وبقيت أنا وحيدًا بالإسكندرية.

-ووالدك، هل يطمئن عليك؟

هززت رأسي قائلًا:

-بالفعل يطمئن، لكي يعلم أنني ما زالت على قيد الحياة أم لا؟

-وأنت، لم تفكر يوم بمواجهته بكل ما حدث؟

-لا..

أشرت بإصبع الإبهام وتابعتُ متفلسفًا..

-من الدروس التى تعلمتها من الحياة.. أن هناك أشخاص لا يجب أن نعاتبهم..

فعلى ماذا نعاتبهم؟

نعاتبهم على خيانتهم..!

كذبهم..!

رحيلهم..!

عدم اهتمامهم بنا..!

المشاعر لا يعاتَب عليها صدقيني..

لأن للمشاعر حرمة خاصة، لا يجوز أن نطالبها.. لأنها تقدم لنا من باب المحبة، وليس من باب الإكراه والإجبار.

لم تبال بفلسفتى وواصت تساؤلاتها قائلةً:

-هل كرهته كما خشيت والدتك؟

أجبتها سريعًا:

-من كل قلبي أقسم لك..

لكني أتحدث معه باحترامٍ حين يطمئن علي.

نظرت لي متعجبة.. فأشرت بإصبعي ناحية السماء قائلًا:

-الله سوف يحاسبنا على معاملتنا مع آبائنا.. لكنه لن يعاقبنا على مشاعرنا ناحيتهم.

حاولت إنهاء حديثنا سريعًا، لأننى شعرت أن مفعول الحشيش والخمر ينقص من عقلي وسأصطدم بالواقع..

أنهيت حديثي قائلا بمنتهى الانهزام والقوة في وقتٍ واحدٍ..

-بقيت هكذا حتى التحقت بالجامعة.. وهناك التقيت بليل (حبي الثاني الذي صادفنطي بعد حبي لأمي).

لن أصف لكِ مظهرها لكن سأصف لكِ عيناها..

فقد كانت تمتلك عين تشبه القدس.. كل منهما هبة من الله.. كل منهما له حرمة خاصة، تذوب الروح أمامها من كثرة الجمال.. كان الجميل بها حقًا هى روحها.. كانت تمتلك روحًا لا مثيلَ لها.. روحًا لا تعرف خبث الحياة وشرها.

روحًا لا تعرف سوى ما هو لطيف مثلها.

هبطتُ من السماء السابعة من كثرة خيالى وأفقت من شرودي قائلًا:

-كانت تحبني بكل ما أوتيت من حبٍ.. وحتى لآخر العمر ستظل تحبني.

تنهدت ثم واصلت وأنا اشغل أخر لفافة تبغ معي قائلًا:

-لكن لتعاسة حظها أنا لم أحبها.. فقط أفضل البقاء معها كإيناسٍ وليس أكثر من هذا.

تساءلت بنبرة متعجبةٍ:

-ولما لم تحب ليل!

ضحكت بصوتٍ عالٍ وأنا أشير إليّ قائلًا..

-لأنني توارثت نزوات أبى.. أحبها بالنهار وأقضي نزواتي مع الرجال فى الليل.

كم هو تعيس أن تمنحنا الحياة الحب بمنتهي السلام وتجبرنا فى نفس الوقت التخلي عنة رغمً عنا.. وكأنها تمنحنا الثواب والعقاب في آن واحد.

ضحكتُ بصوتٍ مرتفعٍ من شدة الألم الذي كنت أشعر به، فضحكت هي الأخرى.. أخذنا نضحك على سخرية القدر وتعاسة حظنا بالحياة.

نهضت من مقعدي مترنحًا.. لا أعلم إلى أين أسير.. لكنني وجدتني أهوى بجسدي على فراشي لتأتي هي الأخرى وتهوى بجسدها فوقي.. نظرت في عيني ونظرت لها متعجبًا لما تنوي فعلته.. اقتربت أكثر حتى ألتحم جسدي بجسدها وأصبح شعرها يغطى وجهنا وحرارة أنفاسنا تزيد لهيب المشاعرِ.

حركت شفتيها لتقول بأنفاسها الساخنةِ:

-هذا أقل أسف يمكنني أن أقدمه لك نيابةً عن قبح العالم الذي نحياه.

قالت هذا ولم أدرك ما حدث بعدها.. فكنا ثملين للغاية..

لكنني ولأولِ مرةٍ أشعر بالأمانِ من جديدٍ.

هناك علاقاتٌ تحيينا، وعلاقاتٌ تقتلنا..

علاقات تجعل أرواحنا شابة مهما بلغنا من العمر، وعلاقات تقصف أعمارنا ونحن في شبابنا.. علاقات تجعلك تشعر بأن هناك أمل..

هناك لطف لم تره بعد..

علاقات تجعلك تؤمن أنه على الرغم من كئابة العالم إلا أنه يوجد به جانب وردي يسر العين..

لا يهم إن كانت هذه العلاقة عابرة أم لا، لكن..

وحدها هذه العلاقات هي التي تبعث الحياة بنا، وتجعلنا نؤمن أنه هناك أملٌ كما تغنت فيروز " إيه في أمل ".

استقيظت صباح اليوم التالي ولم أجدها بجواري، لكنها تركت لي رسالةً على زجاج المرآة التي توجد بالحمام بقلمها التي تصبغ شفتيها به..

وجدتها كاتبةً:

-عزيزي مالك.. أعرفك بنفسي في البداية، أنا حياة.

أعلم أنني لا أجيد الكتابة مثلك، لكني أردت أن أكتب لك ذلك.. لم أجب على سؤالك لي حينما سألت:

ما الحياة بالنسبة لكِ؟

كنت أتمنى أن أجيبك، لكن لم أحب أن أقاطعك، فكنت أري فى عينيك أنك بحاجةٍ وبشدة إلى الحديث.. لكنى أريد الأجابة الآن.

وما الحياة إلا عبثٌ يا صديقي..

فلا دامت لأحدٍ ولا أحد دام لها..

لا الحبيب، ولا المال، ولا الأصدقاء، ولا العائلة..

حتى أنا وأنت وليل..

جميعنا لسنا دائمين حتى لأنفسنا.. فهون على ذاتك وتقبلها.

ليت الجميع يتقبل ذاته كما هي ويتوقف عن جلدها..

ربما تكون فى نظر المجتمع آثمٌ ومخطيءٌ.. لكنك فى نظري شاب عبثت به الحياة وليس أكثر من ذلك..

توقف عن التفكير فلن تحصد منه سوى الهم.

لم أُرد شيئًا لأحدٍ من قبل لكني أتمنى لك ما لم أحظى به طوال حياتي..

أتمنى لك السلام يا مالك.

لا تبحث عني مرةً أخرى، فلن تجدني حتى بتلك الحانة..

فكما قلتُ لك أنا عابرةٌ ولن تراني مرةً أخرى..

أشكرك على هذه الليلة التي قضيتها معك وعلى الرواية التي اقتنصتها منك..

وأخيرًا.. أتمنى أيضًا أن تكتب ما حدث في هذه الليلة ربما تصبح رواية جيدة يسعى الجميع لاقتنائها.

وداعًا.

إلى هنا وتنتهى القصة.. فقد نفذت وعدكِ يا حياة وكتبت ليلتنا في هذه الأوراق.. لكني لا أفضل أن تصبح رواية يسعى الجميع لاقتنائها كما قلتِ.. فالجميع لا يعني لي شيئًا من الأساس..

بالفعل كتبت ليلتنا، لكني سأهديها لمن هو أعظم من الجميع.. لمن يستمع للجميع ولم يرد أحدًا يومًا..

سأهديها الآن إلى البحر فتسكن قاعه إلى الأبد.. وبما أنها ستسكن قاعه أريد أن أطرح عليه سؤالًا يراودني دومًا، فربما تحدث المعجزة ويتحدث ويجيبني..

-كيف يمكن للمرء أن ينجو بذاته من ذاته؟

انتهت ليل من قراءة تلك الأوراق التي أرسلها البحر لها.. لينتفض جسدها مرة أخرى حينما هم أحدهم بالجلوس بجوارها.. لتنظر إليه فتجد مالك ينظر لها مبتسما ومعه هدية عيد ميلادها قائلًا:

-أعتذر لك عن غيابي.

تمت.

شكر خاص

العابر بطل ذلك العمل.

والدتي "فاطمة أحمد"

عائلتي.

بسنت عمر.

صفية أحمد.

محمد إبراهيم.

أحمد الميهي.

عبدالله إبراهيم.

شكرًا لكم من الأعماق على مجهوداتكم، ولكم مني وافر الحُبِ والعرفانِ.

عَبَثٌ

في بعض الأحيان يجب على المرء أن يفعل كل ما يريده..
كل ما يهواه قلبه ويرغب به عقله.. الحياة التي تكون على وتيرة
واحدة يملأها العفن.. التحرر هو الحياة ي صديقي..
والتحرر الحقيقي هو أن تفعل ما لم تجرؤ للحظة على فعله..
ألطف أنواع التحرر هو تحرر الروح.. هي تلك اللحظة
التي تغمض فيها عيناك..
في حين أن نسمات الهواء تحرك كل ما هو جامد بداخلك..
تجلس مستمعا إلى معزوفة موسيقية تروق لك تاركًا
كل شيء كما هو..
حالة من الاستسلام والسلام النفسي والتصالح مع كل ما هو قبيح
وجميل في آن واحد..
فقط هي روحك ترقص في ذلك الهواء الطلق..
ترقص من فرط المعاناة التي تحياها في كل ليله..
ترقص بعد أن غلبها اليقين بأن كل ما حدث لك ما هو إلا عبث.

تصميم الغلاف: على عطية